الفصل السابع

المصطفى ﷺ ضحوك مع أهل بيته

١- عائشة وخيولها التي تطير .

٢- عائشة وحادثة الإفك .

٣- أم سلمة و حيضتها .

٤- عائشة و حفصة في سورة التحريم .

٥- فاطمة تتوسط عند رسول الله لأزواجه ضد عائشة .

٦- سودة وحريرة عائشة .

المصطفى ﷺ ضحوك مع أهل بيته

لم يكن النبي ﷺ جاف الطبع مع أهل بيته ، ولا كان فظاً غليظ القلب ، وما كان ﷺ ضحوكاً خارج بيته حتى إذا دخل جلس القائم ، واتكأ القاعد ، وسكت المتحدث ، واختبئ الظاهر ، وغاب الحاضر ، لم يكن كذلك ﷺ ؛ إنما كان يشارك أهل بيته في جل أعمالهم ، وحتى ضحكهم .

ومن روائع مؤانسته ﷺ لأهله ما رواه أنس ﷺ قال : « كان النبي ﷺ عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام ، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة ، فانفلقت ، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ، ويقول : غارت أمكم ، وحبس الخادم حتى أتى بصحفة من التي هو في بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها ، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت »[1] .

وسأذكر من ضحكه ﷺ مع أهل بيته ما يلي :

١- عائشة وخيولها التي تطير .

٢- عائشة وحادثة الإفك .

٣- أم سلمة وحيضتها .

٤- عائشة وحفصة في سورة التحريم .

٥- فاطمة تتوسط عند رسول الله لأزواجه ضد عائشة .

٦- سودة وحريرة عائشة .

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٥) .

عائشة وخيولها التي تطير

عن عائشة ﷺ قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر ؛ وفي سهوتها[1] ستر فهبت ريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة (لعب) ، فقال : «ما هذا يا عائشة ؟» قالت : بناتي . ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع[2] ، فقال : «ما هذا الذي أرى وسطهن ؟» قالت : فرس . قال : «وما هذا الذي عليه ؟» قالت : جناحان . قال : «فرس له جناحان ؟» قالت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ ! قالت : **فضحك ﷺ حتى رأيت نواجذه** .[3]

عائشة هي : أم المؤمنين أم عبد الله بنت أبي بكر الصديق ﷺ ، كانت مسماة لجبير بن مطعم فخطبها رسول الله ﷺ فقال أبو بكر ﷺ : دعني حتى أسلها من جبير سلاً رفيقاً ، فتزوجها رسول الله ﷺ بمكة في شوال قبل الهجرة بسنتين وقيل بثلاث وهي بنت ست سنين ، وبنى بها بالمدينة وهي بنت تسع سنين ، وبقيت عنده تسع سنين ، ولم يتزوج بكرا غيرها ، قالت يوماً : يا رسول الله ألا تكنيني ؟ قال : تكني بابنك ، يعني عبد الله بن الزبير فكانت تكنى أم عبد الله .

كانت أحب النساء إلى النبي ﷺ ، يقول عمرو بن العاص أتيت النبي ﷺ فقلت : أي الناس أحب إليك يا رسول الله ؟ قال : «عائشة» . قلت من الرجال ؟ قال : «أبوها» قلت : ثم من ؟ قال : «ثم عمر»[4] .

---

(١) سقف أو صفة تكون أمام البيت أو في ساحته .

(٢) قطعة من جلد .

(٣) رواه أبو داود في الأدب (٤٩٣٢) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤١٢٣) .

(٤) رواه البخاري في المغازي (٤٣٥٨) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٤) .

وقد رأى النبي ﷺ في منامه أنها زوجة له قبل زواجه منها ، تقول عائشة : قال رسول الله ﷺ : أُريتك في المنام مرتين ، ورجل يحملك في سرقة[1] من حرير ؛ فيقول : هذه امرأتك . فأقول : « إن كان هذا من عند الله عز وجل يمضه[2] »[3] .

إن هذا الحديث يعطي صورة عن حياة النبي ﷺ داخل بيته مع أهله ، حيث كان يراعي لكل واحدة منهن حالها ووضعها ، وسنها وبيئتها التي قدمت منها ، وكم كان لعائشة رضي الله عنها من الحب والتقدير ؛ بل والاهتمام البالغ ، والسبب في ذلك صغر سنها ، فلم يكن النبي ﷺ يعاملها كما يعامل غيرها من أمهات المؤمنين ، فقد كان لكل واحدة منهن تجربة ، وكن في الغالب يفقن عائشة في السن بسنوات وسنوات .

وهذا الحديث يعطي دلالة واضحة على يسر النبي وسهولة أمره مع أهل بيته ، فهو يسأل ويسمع ، ويحاور ويجادل ، ويضاحك ويلاعب ؛ لأنه وإن كان رسولاً نبياً ، لا ينسى أنه زوج بار ، وأب رحيم ، وجد حنون .

وقد كان النبي ﷺ يُراعي لها صغر سنها كما في الحديث الذي معنا .

وفي البخاري عن عائشة قالت : كان الحبش يلعبون بحرابهم ، فسترني رسول الله ﷺ وأنا أنظر فما زلت أنظر حتى كنت أنا أنصرف . فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو[4] .

ومن أجمل ما في الحديث مؤانسة النبي ﷺ لعائشة وضحكه من صنيعها وألعابها .

قال ابن حجر : واستدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات واللعب من أجل لعب البنات بهن ، وخص ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور ؛ وبه جزم عياض ، ونقله عن الجمهور ؛ وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن من صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن .

---

(١) قطعة من حرير جيد .

(٢) ينفذه ويأمر به .

(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٠٧٨) .

(٤) سبق تخريجه

قال : وذهب بعضهم إلى أنه منسوخ ، وإليه مال ابن بطال ، وحكى عن ابن أبي زيد عن مالك : أنه كره أن يشتري الرجل لابنته الصور ، ومن ثم رجح الداودي أنه منسوخ ، وقد ترجم ابن حبان «الإباحة لصغار النساء اللعب باللعب» ، وترجم له النسائي « إباحة الرجل لزوجته اللعبة بالبنات» فلم يقيد بالصغر [1].

والذي نراه والعلم عند الله تعالى : أنه لا مانع من لعب الأطفال ، وإن كانت في صور التماثيل ، لأن مثل هذه اللعب لا يقصد بها التعظيم ، بل ينالها ما ينالها من الامتهان والعبث . قال القرضاوي : ومثل لعب الأطفال : التماثيل التي تصنع من الحلوى وتباع في الأعياد ونحوها ، ثم لا تلبث أن تؤكل [2].

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- وجوب ملاطفة الرجل لأهله .
٢- مراعاة سن النساء في الصغر والكبر ، وكذلك الأولاد .
٣- ضرورة الترويح عن الزوجات والأولاد .
٤- ضرورة الحوار مع النساء والصغار ، والسماع لهم .
٥- جواز اللعب بالتماثيل ما كانت ممتهنة .
٦- معاملة الصغار بما يتناسب مع فهمهم .
٧- جواز اتخاذ اللعب للصغار .

عائشة وحادثة الإفك

عن عائشة ﵂ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ؛ وإنه أقرع بيننا في غزاة فخرج سهمي ، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب ، وأنا أُحمل في هودج وأنزل فيه . فسرنا حتى إذا فرغ

---

(١) انظر : فتح الباري ، ٥٢٧/١٠ .

(٢) انظر : الحلال والحرام ، د : يوسف القرضاوي ، ط مكتبة وهبة ، ط الرابعة والعشرون ٢٠٠٠م ، ص٩٥ .

رسول الله ﷺ من غزوته تلك . . . . . إلى أن قالت : ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيا يتلى ؛ ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله تعالى في بأمر يتلى ؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها . فوالله ما رام مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت ، حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، فسري عنه ، وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي : يا عائشة احمدي الله تعالى فإنه قد برأك . فقالت لي أمي : قومي إلى رسول الله فقلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله تعالى ، هو الذي أنزل براءتي . فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ (النور:١١) العشر الآيات . . . . . [1]

إن أصحاب الدعوات ينبغي أن يوطنوا أنفسهم لتحمل تبعات الدعوة ؛ فإن طريقها ليس مفروشاً بالورود ولا معطراً بالمسك والرياحين . وهذا رسول الله وهو من هو ؟ فلم تشفع له مكانته عند ربه أن يعافيه من الإيذاء والتعذيب ، ذلك أن هذه هي ضريبة الدعوة قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:٢).

إن البلاء هو طريق الجنة وثمنها ، وكم هي غالية لأنها سلعة الله ، والدنيا كلها لا قيمة لها بجوار هذه السلعة يقول ابن القيم : يا بائعا نفسه بهوى من حبه ضنا ووصله أذى وحسنه إلى فنا ؛ لقد بعت أنفس الأشياء بثمن بخس ، كأنك لم تعرف قدر السلعة ، ولا خسة الثمن ، حتى إذا قدمت يوم التغابن تبين لك أن الغبن في عقد التبايع « لا اله إلا الله ».

سلعة الله مشتريها ، وثمنها الجنة ، والدلال الرسول ؛ ترضى ببيعها بجزء يسير مما لا يساوي كله جناح بعوضة ، إذا كان شيء لا يساوي جميعه جناح بعوضة عند من صرت عبده ، ويملك جزء منه كلك ، ما الذي يكون على ذا الحال قدرك عنده ؟ وبعت به نفسا قد استامها بما لديه من الحسنى وقد زال وده [2].

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٥٠) ومسلم في التوبة (٢٧٧٠) .

(٢) انظر : الفوائد ، ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية ، ص ٤٢ .

نعم إن البلاء هو سنة الدعوات ، وطريق المرسلين ، وقد سئل الشافعي رحمه الله : أيمكن للرجل أم يبتلى ؟ فقال : لا يمكن للرجل حتى يبتلى .

ولله در ابن القيم حين قال :

يا مخنث العزم أين أنت والطريق طريق تعب فيه آدم ، وناح لأجله نوح ، ورمي في النار الخليل ، واضطجع للذبح إسماعيل ، وبيع يوسف بثمن بخس ، ولبث في السجن بضع سنين ، ونشر بالمنشار زكريا ، وذبح السيد الحصور يحيى ، وقاسى الضر أيوب ، وزاد على المقدار بكاء داود ، وسار مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر وأنواع الأذى محمد ﷺ [1].

نعم لقد عالج محمد ﷺ في الدنيا أنواع الأذى من : سب وقذف ، وشتم وضرب . ولعل حادثة الإفك كانت من أشد ما ابتلي به رسول الله ﷺ .

يقول صاحب الظلال : هذا الحادث . حادث الإفك . قد كلّف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاما لا تطاق ؛ وكلّف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل ؛ وعلّق قلب رسول الله وقلب زوجه عائشة التي يحبها ، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل . . شهرا كاملاً . علّقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق .

وهكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته . وعاش أبو بكر ﷺ وأهل بيته ، وعاش صفوان بن المعطل ، وعاش المسلمون جميعا هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق ، وفي ظل تلك الآلام الهائلة ، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات .

وإن الإنسان ليقف متململا أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول ، وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجه المقربة . وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة . تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة .

---

(١) انظر : الفوائد ، ابن القيم ، ط دار الكتب العلمية ، ص ٤٢ .

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه ، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة ؛ وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع ؛ ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم [1].

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- أن القرآن من عند الله تعالى ، ولو كان من عند رسول الله ﷺ لاستعجل رسول الله ﷺ الوحي ليبرأ نفسه وأهله .

٢- أن طريق الدعاة مفروش بالأشواك لا بالورد .

٣- أن أشد الناس بلاء هم «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل».

٤- أن الجنة لا تنال إلا بالتعب والكد .

٥- خطورة المنافقين على الصف المسلم .

أم سلمة وحيضتها

عن أم سلمة قالت : «بينا أنا مع رسول الله في الخميلة[2] إذ حضت ، فانسللت[3] آخذ ثياب حيضتي ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : «أنفست ؟» قلت : نعم . قالت : وكان النبي يقبل وهو صائم ، ويغتسلان من إناء واحد»[4].

هذا الحديث متفق عليه ؛ غير أن ضحك النبي ﷺ ليس في الصحيحين ؛ فعن أم سلمة قالت : «حضت وأنا مع النبي ﷺ في الخميلة ؛ فانسللت فخرجت منها ، فأخذت ثياب حيضتي فلبستها ، فقال لي رسول الله ﷺ : أنفست ؟ قلت : نعم . فدعاني فأدخلني معه في الخميلة»[5].

---

(١) انظر : في ظلال القرآن ، الشهيد : سيد قطب ، ٤/ ٢٤٤٥ وما بعدها بتصرف .

(٢) كساء غليظ .

(٣) خرجت برفق .

(٤) الطبراني في الأوسط (١٩٥/٢) .

(٥) رواه البخاري في الحيض (٣٢٣) ومسلم في الحيض (٢٩٦) .

ولما حاضت أم المؤمنين أم سلمة ورسول الله ﷺ عندها وفي ليلتها تسللت ، وتسلل أم المؤمنين من بين يدي رسول الله قال عنه النووي :

١- يحتمل أنها خافت وصول شيء من الدم إليه ﷺ .

٢- أو تقذرت نفسها ولم تر تربصها لمضاجعته ﷺ .

٣- أو خافت أن يطلب الاستمتاع بها وهي على هذه الحالة التي لا يمكن فيها الاستمتاع .[١]

تعد عادة الحيض من الأعراض التي كتبها الله على جنس النساء ؛ وهي سنة من سنن الله في هذا الخلق الضعيف ، ولهذا لما دخل على عائشة في حجة الوداع ووجدها تبكي بسبب حيضتها قال لها : « فلا يضرك ، أنت من بنات آدم كتب الله عليك ما كتب عليهن ، فكوني في حجك عسى الله أن يرزقكها »[٢].

وفي رواية قال لها مداعباً لها : « ما يبكيك يا هنتاه[٣]؟ » ثم قال لها ﷺ مطيباً خاطرها : « فلا يضرك أنت من بنات آدم ، كتب الله عليك ما كتب عليهن »[٤].

وموقف الإسلام من المرأة الحائض موقف وسطي واضح ، حيث إن الإسلام لم ير المرأة شيئا مستقذرا في هذا الحالة ، ولم ير التمتع بها كلية في حال حيضتها ، ولذلك رأينا الشرع يبيح للمرأة في حال حيضتها أمورا كثيرة لم يكن الناس وقتها يتوقعون إباحتها . ومن ذلك : مؤاكلتها ومشاربتها ، فعن عائشة قالت : كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبى ﷺ فيضع فاه على موضع فى فيشرب ، وأتعرق العرق[٥] وأنا حائض ثم أناوله النبى ﷺ فيضع فاه على موضع في[٦].

---

(١) انظر : شرح النووي ، ٣/ ٢٠٧ .

(٢) رواه البخاري في العمرة (١٧٨٨) ومسلم في الحج (١٢١١) .

(٣) هنتاه : يا هذه .

(٤) رواه البخاري في الحج (١٥٦٠) .

(٥) العرق : العظم إذا أخذ عنه معظم اللحم .

(٦) رواه مسلم في الحيض (٣٠٠) .

ولم يمنع الإسلام خدمة المرأة لزوجها ، فعن عائشة قالت : « كنت أرجل رأس رسول الله ﷺ وأنا حائض[1] » . قال النووي : ولا يكره وضع يدها في شيء من المائعات . ولا يكره غسلها رأس زوجها أو غيره من محارمها وترجيله . ولا يكره طبخها وعجنها وغير ذلك من الصنائع ، وسؤرها وعرقها طاهران ، وكل هذا متفق عليه .

وقد نقل الإمام أبو جعفر محمد بن جرير في كتابه « مذاهب العلماء » : إجماع المسلمين على هذا كله ودلائله من السنة ظاهرة مشهورة ، وأما قول الله تعالى : ﴿ فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ﴾ (البقرة:٢٢٢). فالمراد : اعتزلوا وطأهن ، ولا تقربوا وطأهن . والله أعلم .[2]

والحديث الذي معنا أباح لها أيضا المضاجعة في سرير واحد ، ولهذا قرر الفقهاء جواز استمتاع الرجل بالمرأة في حيضتها ، وروى عكرمة عن بعض أزواج النبي ﷺ : أن النبي ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئا ألقى على فرجها ثوبا[3]. قال النووي : في هذا الحديث : جواز النوم مع الحائض ، والاضطجاع معها في لحاف واحد إذا كان هناك حائل يمنع من ملاقاة البشرة فيما بين السرة والركبة ، أو يمنع الفرج وحده عند من لا يحرم إلا الفرج . قال العلماء : لا تكره مضاجعة الحائض ، ولا قبلتها ، ولا الاستمتاع بها فيما فوق السرة وتحت الركبة[4].

وكما أباح الإسلام للمرأة هذه الأمور الدنيوية التي حرمتها منها بعض الأديان ؛ أباح لها كثيرا من أمور التعبد ، ومنها قراءة القرآن وذكر الله بأي كيفية ، قال ابن حزم : وقراءة القرآن والسجود فيه ومس المصحف وذكر الله تعالى جائز ، كل ذلك بوضوء وبغير وضوء وللجنب والحائض . برهان ذلك : أن قراءة القرآن

---

(١) رواه البخاري في الحيض (٢٩٥) ومسلم في الحيض (٢٩٧) .

(٢) انظر : شرح النووي ، ٣/ ٢٠٧ وما بعدها .

(٣) رواه أبو داود في الطهارة (٢٧٢) وصححه الألباني في أبي داود (٢٤٢) .

(٤) انظر : شرح النووي ، ٣/٢٠٧ وما بعدها .

والسجود فيه ، ومس المصحف وذكر الله تعالى ؛ أفعال خير مندوب إليها مأجور فاعلها . فمن ادعى المنع فيها في بعض الأحوال كلف أن يأتي بالبرهان[1].

كما أباح النبي ﷺ للمرأة الحائض شهود العيدين ؛ وحض على ذلك وأمر به ، فعن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : « يخرج العواتق وذوات الخدور ، أو العواتق ذوات الخدور ، والحيض ، وليشهدن الخير ودعوة المؤمنين ، ويعتزل الحيض المصلى »[2].

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- وجوب مؤانسة الرجل لأهله في وقت حيضتها .

٢- مشروعية الاستمتاع بالمرأة حال الحيض دون الفرج .

٣- مشروعية اغتسال الرجل وامرأته من إناء واحد .

عائشة وحفصة في سورة التحريم

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قلت : يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله عز وجل لهما : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ (التحريم:٤)؟ قال عمر : واعجبا لك يا ابن عباس ـ قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه ـ قال : هي حفصة وعائشة ، ثم أخذ يسوق الحديث . قال : كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق[3] نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال : وكان منزلي في بني أمية بن زيد بالعوالي ، فتغضبت يوماً على امرأتي ، فإذا هي تراجعني[4] فأنكرت أن تراجعني

---

(١) انظر : المحلى لابن حزم (٧٨/١) .

(٢) رواه البخاري في الحيض (٣٤٢) .

(٣) فطفق : شرع وبدأ .

(٤) المراجعة : المحاورة والمجادلة .

فقالت : ما تنكر أن أراجعك ، فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ فقالت : نعم ، فقلت أتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ، قالت : نعم ، قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ فإذا هي قد هلكت ، لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئا وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك ؛ يريد عائشة ، قال : وكان لي جار من الأنصار ؛ فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ فينزل يوما وأنزل يوما ؛ فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك ، وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا ؟ فنزل صاحبي ثم أتاني عشاء فضرب بابي ، ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ، قلت : ماذا أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول ، طلق النبي ﷺ نساءه فقلت : قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا كائناً ، حتى إذا صليت الصبح شددت علي ثيابي ، ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ فقالت : لا أدري ها هو ذا معتزل في هذه المشربة[1]، فأتيت غلاماً له أسود فقلت : استأذن لعمر فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له فصمت . فانطلقت حتى انتهيت إلى المنبر فجلست فإذا عنده رهط[2] جلوس يبكي بعضهم ، فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد ثم أتيت الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال : قد ذكرتك له فصمت . فوليت مدبرا[3] فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل فقد أذن لك ، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ ، فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت : أطلقتَ يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلي وقال : « لا ». فقلت الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء ؛ فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فتغضبت

---

(١) الغرفة المرتفعة .

(٢) الجماعة من الرجال دون العشرة .

(٣) راجعاً .

عليّ امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ، فقلت : قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر ، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ﷺ ، فإذا هي قد هلكت ، فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله ؛ قد دخلت على حفصة ، فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم منك ، وأحب إلى رسول الله ﷺ منك ، فتبسم أخرى .

يخطأ من يتوهم أن الحياة الأسرية لأي إنسان مهما كان خالية ؛ من الشد والجذب ، والعسر واليسر ، والشدة والفرج ، والسرور والألم ، والفرح والحزن ، وهكذا كانت حياة النبي ﷺ ، فقد يغضب من نسائه ، والوارد أنه ﷺ غضب منهن ، بل اعتزلهن وخيرهن في البقاء أو الطلاق ، كما قصت علينا سورة الأحزاب .

إن المرء لا يزال متعجبا من هذا البيت النبوي المبارك ، الذي خرج منه نور الهدى ، وشع منه ضياء الإسلام ، ورضع من دخله من أئناء الشريعة ، واغترف من أنهار العلم والمعرفة ؛ هل يمكن أن يدب فيه الخلاف ؟ ! والجواب الذي نؤكد به ما سبق : أن نساء النبي ﷺ لم يخلقن كما خلقت حور الجنة ، وإنما هن من تراب الأرض وطينه ، وفيهن من التراب والطين والحمأ المسنون ، ما يكدر صفو أي حياة زوجية ، حتى وإن كانت مع خير البشر ، لأن هذه هي الدنيا :

جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفوا من الأكدار والأقذار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

والحديث الذي معنا ؛ يصور لنا صورة أخرى من الصورة الرائعة ، التي سجلتها لنا كتب الحديث والسير ، وهي صورة توضح لنا طبيعة الحياة النبوية التي مرّت بحالات من الشد والجذب بين النبي ﷺ ونسائه ، وكيف كان النبي ﷺ يلين وقت اللين ، ويشد وقت لا ينفع إلا الشدة .

وأعظم ما في هذا الحديث هو صبر النبي ﷺ على نسائه ، وحُسن تعامله معهن ، حتى تعجب عمر من هذا الصنيع ، وهو والد واحدة منهن ، وأحسب أن عمر رضي الله عنه

لم يكن ليصنع غير ما صنع وإن تكن حفصة مع نساء النبي ﷺ ، بعدما تعلم أن رسول الله ﷺ لا بد وأن يكون أحب إليه من ماله وولده ووالده والناس أجمعين .

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- تأديب الرجل ابنته وقرابته بالقول لأجل إصلاحها لزوجها .

٢- مهابة الطالب للعالم ، تواضع العالم لتلميذه وصبره على مساءلته .

٣- حرص الصحابة على طلب العلم والضبط بأحوال الرسول ﷺ .

٤- أن طالب العلم يجعل لنفسه وقتا يتفرغ فيه لأمر معاشه وحال أهله .

٥- البحث في العلم في الطرق والخلوات وفي حال القعود والمشي .

٦- الصبر على الزوجات والإغضاء عن خطابهن والصفح عما يقع منهن من زلل .[1]

فاطمة تتوسط عند رسول الله لأزواجه ضد عائشة

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت : أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت النبي ﷺ فاستأذنت والنبي ﷺ مع عائشة في مرطها[2]، فأذن لها فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، فقال النبي ﷺأي بنية ألست تحبين ما أحب ؟ فقالت : بلى . فقال : فأحبي هذا لعائشة . قالت : فقامت فاطمة فخرجت ، فجاءت أزواج النبي ﷺ فحدثتهن بما قالت وبما قال لها ، فقلن لها : ما أغنيت عنا من شيء فارجعي إلى النبي ﷺفقالت فاطمة : والله لا أكلمه فيها أبداً ، فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش ؛ فاستأذنت فأذن

---

(١) انظر : فتح الباري ، ٩/٢٩٠ وما بعدها بتصرف .

(٢) كساء من صوف .

لها فدخلت ، فقالت : يا رسول الله أرسلني إليك أزواجك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، قالت عائشة : ثم وقعت بي[1] زينب ، قالت عائشة : فطفقت[2] أنظر إلى النبي ﷺ متى يأذن لي فيها ، فلم أزل حتى عرفت أن النبي ﷺ لا يكره أن أنتصر . قالت : فوقعت بزينب فلم أنشبها[3] أن أفحمتها فتبسم النبي ﷺ ثم قال : « إنها ابنة أبي بكر »[4].

هذه الواقعة رائعة أخرى من روائع النبي ﷺ ، وهي توضح الحالة النفسية التي كان عليها أزواج النبي ﷺ ، وكيف كان النبي ﷺ يعالج مثل هذه الأمور .

إن من الأمور التي فطر الله الناس عليها ما يعرف بـ (الغيرة) وهي غريزة ملازمة لكل بني البشر ، ولا نستطيع أن نحكم على الغيرة حكماً واحداً من حيث القبول أو الرفض ، أو المدح والذم ، وإنما يُمكن القول بأن الغيرة نوعان :

١- غيرة محمودة .　　٢- غيرة مذمومة .

وفي الحديث عن جابر بن عتيك : أن النبي ﷺ كان يقول : « من الغيرة ما يحب الله ، ومنها ما يبغضه الله ، فأما التي يحبها الله فالغيرة في الريبة ، وأما التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة »[5].

ومعنى هذا أن الغيرة المحمودة ما كانت في موضعها ، والسبب واضح معروف ، وهي الغيرة التي مدحها النبي في سعد بن عبادة : جاء في الصحيحين عن سعد ابن عبادة قال : يا رسول الله ، لو وجدت مع أهلي رجلاً لم أمسه حتى آتي بأربعة شهداء ؟ ! قال رسول الله ﷺ : نعم . قال : كلا والذي بعثك بالحق ، إن كنت لأعاجله بالسيف قبل ذلك . قال رسول الله ﷺ : « اسمعوا إلى ما يقول سيدكم ، إنه

---

(١) الوقوع : اللوم والتعنيف .
(٢) شرعت وبدأت .
(٣) أنشب : ألبث وأمهل .
(٤) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٢) .
(٥) رواه أبو داود في الجهاد (٢٦٥٩) والنسائي في الكبرى (٥/ ٧٨) وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣١٦) .

لغيور ، وأنا أغير منه والله أغير مني». وفي رواية للبخاري : «ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين» [1].

لكن هذه الغيرة قد تزيد عن حدها فتحمل صاحبها على المبالغة فيها ، وقد عرف بهذا عمر بن الخطاب ، لذا رأينا رسول الله يقول لعمر : بينا نحن عند رسول الله ﷺ إذ قال : «بينا أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر ، فقلت : لمن هذا القصر ، قالوا : لعمر ، فذكرت غيرته ، فوليت مدبرا» فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله[2].

وممن عرف بهذا أيضاً الزبير بن العوام ، فقد كان ﷺ زائد الغيرة على أسماء تقول أسماء : تزوجني الزبير ، وما له في الأرض من مال ولا مملوك ، ولا شيء غير ناضح وغير فرسه ، فكنت أعلف فرسه وأستقي الماء ، وأخرز غربه وأعجن ، ولم أكن أحسن أخبز ، وكان يخبز جارات لي من الأنصار ، وكن نسوة صدق ، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ على رأسي ، وهي مني على ثلثي فرسخ ، فجئت يوما والنوى على رأسي ، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار ، فدعاني ثم قال : (إخ إخ) . ليحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرجال ، وذكرت الزبير وغيرته ، وكان أغير الناس ، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى ، فجئت الزبير فقلت : لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النوى ، ومعه نفر من أصحابه ، فأناخ لأركب ، فاستحييت منه وعرفت غيرتك ، فقال : والله لحملك النوى كان أشد علي من ركوبك معه ، قالت : حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك خادم يكفيني سياسة الفرس ، فكأنما أعتقني [3].

وحين تزداد الغيرة عن حدها تنقلب من الغيرة المحمودة إلى الغيرة المذمومة ، وأكثر ما تكون هذه الغيرة بين الزوجات ، وقد كان لأمنا عائشة ﷺ حظ وافر ،

---

(١) رواه البخاري في التوحيد (٧٤١٦) ومسلم في اللعان (١٤٩٨) عن المغيرة بن شعبة .
(٢) رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٥) عن جابر.
(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٤) ومسلم في السلام (٢١٨٢) عن أسماء .

ومن هذا ما رواه مسلم عن محمد بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب أنه قال يوما : ألا أحدثكم عني وعن أمي! قال ، فظننا أنه يريد أمه التي ولدته . قال : قالت عائشة : ألا أحدثكم عني وعن رسول الله ﷺ! قلنا : بلى . قال : قالت : لما كانت ليلتي التي كان النبي ﷺ فيها عندي ، انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه ، فوضعهما عند رجليه ، وبسط طرف إزاره على فراشه ، فاضطجع . فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت فأخذ رداءه رويدا ، وانتعل رويدا ، وفتح الباب فخرج . ثم أجافه رويدا . فجعلت درعي في رأسي ، واختمرت ، وتقنعت إزاري . ثم انطلقت على إثره . حتى جاء البقيع فقام . فأطال القيام . ثم رفع يديه ثلاث مرات . ثم انحرف فانحرفت . فأسرع فأسرعت . فهرول فهرولت . فأحضر فأحضرت . فسبقته فدخلت . فليس إلا أن اضطجعت فدخل . فقال «ما لك؟ يا عائش! حشيا رابية!» قالت : قلت : لا شيء . قال «لتخبريني أو ليخبرني اللطيف الخبير» قالت : قلت : يا رسول الله! بأبي أنت وأمي! فأخبرته . قال «فأنت السواد الذي رأيت أمامي ؟» قلت : نعم . فلهدني في صدري لهدة أوجعتني . ثم قال «أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟» قالت : مهما يكتم الناس يعلمه الله . نعم . قال «فإن جبريل أتاني حين رأيت فناداني . فأخفاه منك . فأجبته . فأخفيته منك . ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك ، وظننت أن قد رقدت . فكرهت أن أوقظك . وخشيت أن تستوحشي»[1].

وكم كان لعائشة رضي الله عنها من غيرة من زوجات الرسول ﷺ ، كان في مقدمتها غيرتها من خديجة رضي الله عنها ، تقول عائشة : ما غرت على امرأة لرسول الله كما غرت على خديجة ، لكثرة ذكر رسول الله ﷺ إياها وثنائه عليها ، وقد أوحي إلى رسول الله ﷺ أن يبشرها ببيت لها في الجنة من قصب.[2]

---

(١) رواه مسلم في الجنائز (٩٧٤) عن عائشة .

(٢) رواه البخاري في النكاح (٥٢٢٩) عن عائشة .

ومن غيرتها أيضاً ما هو دائر معنا في هذا الحديث .

والسبب في اعتراض نساء النبي ﷺ توضحه عائشة كما عند أبي عوانة وأبي نعيم : قالت : كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، فاجتمعن صواحبي إلى أم سلمة فقلن لها : خبّري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا له حيث كان ، قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ . قالت : فأعرض عني ، قالت : فلما عاد إليّ ذكرت له ذلك فأعرض عني .

قال ابن حجر : والنبي ﷺ لم يفعل ذلك ، وإنما فعله الذين أهدوا له ، وهم باختيارهم في ذلك . وإنما لم يمنعهم النبي ﷺ لأنه ليس من كمال الأخلاق أن يتعرض الرجل إلى الناس بمثل ذلك ؛ لما فيه من التعرض لطلب الهدية .[1]

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- في الحديث منقبة ظاهرة لعائشة .

٢- وأنه لا حرج على المرء في إيثار بعض نسائه بالتحف ، وإنما اللازم العدل في المبيت والنفقة ونحو ذلك من الأمور اللازمة .

٣- تنافس الضرائر وتغايرهن على الرجل ، وأن الرجل يسعه السكوت إذا تقاولن ، ولا يميل مع بعض على بعض .

٤- وفيه جواز التشكي والتوسل في ذلك .

٥- وفيه ما كان عليه أزواج النبي ﷺ من مهابته ، والحياء منه ، حتى راسلنه بأعز الناس عنده فاطمة .

٦- وفيه سرعة فهمهن ورجوعهن إلى الحق والوقوف عنده .

٧- وفيه إدلال زينب بنت جحش على النبي ﷺ لكونها كانت بنت عمته.[2]

---

(١) انظر : فتح الباري ، ٥/ ٢٠٧ وما بعدها باختصار .

(٢) انظر : فتح الباري، ٥/ ٢٠٧ وما بعدها باختصار .

سودة وحريرة عائشة

عن عائشة ﷺ قالت : أتيت النبي ﷺ بحريرة[1] قد طبختها له ، فقلت لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها : كلي . فأبت . فقلت : لتأكلين أو لألطخن وجهك . فأبت ، فوضعت يدي في الحريرة ، فلطخت وجهها ، فضحك النبي ﷺ ، فوضع بيده لها وقال لها : ألطخي وجهها ، فضحك النبي ﷺ لها ، فمر عمر ، فقال : يا عبد الله ، فظن أنه سيدخل ، فقال : « قوما فاغسلا وجوهكما ». قالت عائشة : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ »[2].

تالله ما أحلمه رسول الله من زوج ، وما أروعه من موقف ؛ إنه ﷺ يرى عائشة تلطخ وجه سودة فيعالج النبي ﷺ الموقف بحكمة ، ويدع سودة تأخذ حقها ، بل يأمرها بذلك .

ترى ألم يكن ﷺ حاملاً همَ الدعوة ، قائماً بواجبها ؟ !

ألم يكن ﷺ يعود من غزو إلى غزو ؟ ومن جهاد إلى جهاد ؟ !

ولكن هذا كله لم يمنعه ﷺ أن يضاحك أهله ، إن واحداً من الناس الآن لو حضر مثل هذا الموقف لأعلن حالة الطوارئ في البيت ، وغلق أبواباً وفتح أبواباً ، وأقسم أيماناً ، وأرهب أولاداً ، وأسكت أزواجاً ؛ بحجة أنه لا احترام لرجل ، ولا هيبة لزوج ، ولا تقدير لمشاعر ، ولا إدراك لمسؤولية ؛ ولكن هذا رسول الله حين يكون زوجاً .

والحديث يدل على أن الفاروق عمر ﷺ كان مهاب الجانب ، عظيم المكانة ، عالي المنزلة عند رسول الله ﷺ ، وهكذا كان عند أصحاب رسول الله ﷺ ؛ بل لقد

---

(١) نوع من الطعام .

(٢) رواه أبو يعلى (٤٤٩/٧) . وقال الحافظ الهيثمي في المجمع : رجاله رجال الصحيح خلا محمد ابن عمرو بن علقمة وحديثه حسن (٣١٦/٤) .

كان ﷺ تخافه الشياطين ، وقد قال له النبي ﷺ يوماً :« إيه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك »[1].

لكن هذا كله لا يمنع أن عمر كان لين الجانب ، هشاً بشاً ، يأنس الناس له ، ويأنسون به ، ورضى الله عن ابن مسعود يوم أن قال : رحم الله عمر لقد كان إسلامه نصراً وهجرته فتحاً وإمارته رحمة .

بعض ما يستفاد من الحديث :

١- لين الرجل بأهله .

٢- مشروعية غض الطرف عن بعض ما يقع من النساء .

٣- حكمة النبي في معاملة أهل بيته .

٤- مشروعية إهداء المرأة ضرتها من طعامها .

٥- تقدير النبي ﷺ لعمر .

---

(١) رواه البخاري في الأدب (٦٠٨٥) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٩٦) .